(6)

فرنسة جحيم داخل الجنة

مرت الأشهر الأولى في فرنسة بسلام، أكثر مما كنت أتصور. بعد عدة أسابيع قضيناها في غرفة مؤثثة استطعنا بمساعدة بعض الأصدقاء الحصول على بيت كبير في الريف بقرية ببايرون تدعى «هنداي».

عندما ذهبت لرؤيتها أول مرة، لم أصدق ما رأيته، بيت كبير مبني من الحجر يحتوي على غرفتين وبهو، ومطبخ كبير وحديقة. هذا غير معقول سنسكن هنا، هل هذا معقول؟ بمجرد وصولنا إلى فرنسة تستقبلنا بهذه الحفاوة، إنها فعلاً «تدلعنا». إنه شيء جميل لا أصدق ما أراه لا يمكن لصاحب هذا البيت تأجيره لغرباء مثلنا؟ لقد وافق شانشيز على ذلك، وأعطانا كل ما نحتاجه لتأثيث غرفة البنات، وكل ما نحتاجه لبدء حياتنا. لا أصدق، أنّ هذا الرجل الذي لم نتعرف عليه كما ينبغي، سعيد بمساعدتنا بكل ما يملك للإعداد للانطلاقة من جديد، ولقد سالت دموعي من الفرح.

غير معقول ما سمعته من أهلي بخصوص العنصرية في هذا البلد، ربما كان ذلك مجرد أوهام أو حسد مبالغ فيه. لم أجد هنا سوى الاحترام والأخوة والتسامح، لم أتصور أن مثل هذا الدفء يوجد في فرنسة. قلت في نفسي ساخرة، كل شيء طبيعي هنا، الرجال والنساء يتكلمون بكل حرية واحترام، ويبدو أن الرجل هنا لا يضرب زوجته، وكل واحد حر في تصرفاته وحياته كما يشاء دون الخوف من الحكم عليه من طرف الأهل. هذه هي

أرض الأحلام، لا يمكن تسميتها غير ذلك، وهي فعلاً مهد الاحترام وحرية الأفراد. لأول مرة شعرت أني محاطة بأناس يفهمونني ويقبلونني مثل ما أنا، لا يحكم على أحد باسم التقاليد العمياء، وخوفاً من القيل والقال.

كانت الحياة في الحي الذي نسكنه لطيفة جداً بفضل الاستقبال الحار من طرف الجيران. يبدو أن عمر تخلص من الإبليس الذي يسكن بداخله، ورجع إلى سلوكه قبل الزواج، وأخذ يعاملنا بلطف وحنان. عندما قدمت إلى فرنسة كنت لا أحسن الكلام باللغة الفرنسية. بعد أسابيع من الإقامة تحسنت لغتي، وأصبح الجميع يفهمني، وبمساعدة السيد شانشيز وزوجته أصبحت أفهم كثيراً من الكلمات الإسبانية.

في إحدى الليالي جاءت لزيارتنا جارتنا نيكول، فهي امرأة جميلة وأنيقة تنحدر من الباسك. تشعرك بالاحترام بمجرد النظر إليها، بنظارتها الجميلة وشعرها الأبيض المتناسق. قالت: ـ أيتها البنت هل ستذهبين إلى الحفل في بايون؟

لا أعرف عن أي حفل تتحدث. حتى لا أبدو جاهلة قلت لها، إنه لدي أطفال يجب رعايتهم، ولا أستطيع الخروج.

- إذا كان هذا هو السبب يمكن لك تركهما عندي لكي تذهبي، وتتمتعي بشبابك مثل كل الشباب.

تلك هي دعوة الباسك، ولا يجب رفضها. لأن في ذلك إهانة لهم. ذهبت مع عمر للمشاركة في هذا الحفل الكبير، فالكل يرقص، ويطلب منا المشاركة في الرقص والغناء، وتفاجأت أني أشاركهم أغنيتهم الشعبية

المعروفة، إلى الأمام إلى الأمام ادفعوا أولاد بايون: وكان عمر يضحك، وهو يمسك بخصري.

شيء جميل، وكما في الأحلام، هذه الحياة الجديدة هي الحرية التي كنت في انتظارها منذ زمن. لأول مرة في حياتي أشعر أني ببلدي.

في المغرب ينقصني الكثير، هنا لا نحتاج إلى شيء، لأن الجيران يوفرون الملابس لأطفالنا كما يوفرون لنا الخضراوات يومياً، وأصبح تبادل الأطباق من عاداتنا، نتبادل الطاجين والبايلا ومنقوع البط.... إلخ. لكن الجيران قدموا لنا أجمل هدية. هي الصداقة؛ الصداقة الحقيقية، لقد اكتشفنا الجنة.

يا لسعادتي بتربية البنات هنا ومنحهما الحرية للعيش في بلد الحرية، بلد الاحترام والأخوة.

أنا فخورة بالانتماء للمغرب، ولكن في هذه اللحظة أعتقد أني لا أستطيع شكر فرنسة التي أخرجتنا من الاستبداد الذي كنا نعيش فيه بسبب تقاليد بالية ومنحطة.

وعمر تحسن سلوكه أيضاً، ربما هو يريد أن يعبر عن اعتزازه بنجاحه في المجتمع الفرنسي أيضاً.

فهو ينتقل من ورشة إلى أخرى، ولأول مرة بدأت أتناول ما يكفيني من الغذاء يومياً. توارت الخلافات، واختفى العنف، وأصبح من الماضي، وبدأ حلمي في حياة كريمة، والتمتع بالسعادة يتجسد. ربما كان المطلوب منا مغادرة الأجواء التي كنا نعيش فيها لإيجاد توازننا.

كنت حاملاً منذ سبعة أشهر، وبدأ الحلم ينقلب إلى جحيم. في صباح يوم من أيام ديسمبر 1967 خرج عمر ليشتري سجائر. مرت الساعات ولم يرجع. كنت قلقة جداً لأن ذلك لا يناسب نمط حياتنا الجديدة. لم أتجرأ على طلب المساعدة من الجيران لأني كنت أشعر أنها كبوة، وسوف تزول، أو سيرجع عمر إلى عادته، وتبدأ المشكلات القديمة من جديد.

رجع في منتصف الليل متأثراً بما احتساه من الخمر، لقد انتهت الهدنة.

ومنذ هذا اليوم بدأ يضربني من جديد لأي سبب كان، وأنا على وشك وضع مولودي الجديد. لكن هذا لا يمنعه من ضربي في أي مكان في جسمي، نفذ كل ما في الثلاجة، ولم يبق أي شيء للأكل. كل راتبه ينفقه على سهراته، وعاد الكابوس من جديد.

يا له من عذاب أنا أعرف أنه يمكن أن نعيش أفضل مما نحن فيه، يجب النظر إلى من حولنا، لماذا يحرمني من تحقيق حلمي؟ بعد أن اقتربنا من الهدف. في هذه المدة الأشياء تختلف، لقد لمست السعادة عن قرب، ولست مستعدة للتفريط فيها. سوف أجد ما يمكنني من الكفاح لأضمن عيشة هنيئة لأولادي في هذا البلد، حتى وإن استمر كفاحي سنين طويلة. أنا أعرف في هذه اللحظة، أنه ليس هناك شيء أو شخص يعترض على مواصلة كفاحي لتحقيق حلمي.

رأس السنة الجديدة على وشك الحلول ضيفاً علينا. بدأ المخاض يراودني، وعمر غائب كالعادة. لست قادرة على التحرك. بعثت نادية لطلب المساعدة من جارتي، وفي ليلة رأس السنة هذه وجد الطبيب صعوبة للوصول إلى بيتي، فباشرت جارتي توليدي ولم تكن مرتها الأولى، لكنها

كانت خائفة. لأنها وجدت حبل السرة ملتوياً على عنق المولود. لا، لا أيحصل هذا مرة ثالثة؟ وبكيت في هذه اللحظة، وصل الطبيب وبعد نصف ساعة، كان ابني عبد الصمد في حضني.

رجع عمر إلى البيت بعد ساعتين، بعد أن انصرف الجميع. اقترب مني وسأل إن كان المولود ولداً. قال ممتاز ثم ذهب إلى فراشه. تدهورت علاقتنا شيئاً فشيئاً، عمر يتصرف وكأنه لا وجود لنا، وبدأ يتغيب مدة طويلة دون إشعارنا.

توقف عن العمل، واكتفى بأعمال قليلة في الخفاء. بالطبع كنا نكتفي بمنحة الأطفال لتدبير أمورنا. كان ينفق الجزء الأكبر منها على سهراته، كلما أقول له إن الثلاجة فارغة يصرخ في وجهي ويقول: تدبري أمورك. أصبح بقاؤنا مرهوناً بمساعدة الجيران الذين يتكرمون علينا بطعام الأولاد، ويؤمنون لنا الحليب والخضراوات، لقد قرأت في نظراتهم الحنان والشفقة، فكان ذلك يسبب الإحراج، والمواساة في آن واحد.

عمر ينظر إلى مساعدة صديقاتي كأنها إهانة لسلطته. لا يريد أن تقدم لي صديقاتي أي مساعدة. رداً على عنفه قرر أن نغادر هذه المنطقة التي أحسبها جنة الأرض لا سمح الله.

رحلنا إلى بيت معزول فيه من الرطوبة ما يكفي، ولا يساوي النعيم الذي كنا نتمتع به. لكنه مرتاح هنا لأنه تخلص من أنظار الجيران الذين ينظرون إليه باحتقار عند عودته وهو سكران. مهما ضربني هنا فلا أحد يراقبه. من جديد بدأت أفكر كيف أهرب من هذا الجحيم؟ كيف أهرب بثلاثة أطفال، وليس لي بطاقة عمل، وليس لي سوى بطاقة إقامة وهناك

صعوبات كثيرة في انتظاري. لا يمكن أن أهرب إلى أي مكان؛ لأن عمر يحتفظ بجواز سفري في جيبه مثل ما يفعل السيد بعبده.

في ليلة من الليالي بالغ في العنف؛ لأن الشهر على وشك الانتهاء، ولم يتبق له شيء من المال لينفقه على سهراته. بدأ يهددني بإرسالي إلى المغرب مع الأطفال. استقبلت هذا التهديد بجدية، ازدادت الأمور سوءاً وشعرت أنه سوف ينفجر، فأغلقت الغرفة على الأطفال، وأخذ يطاردني في الممر، فأغلقت الباب خلفي لكنه لحقني وانهال علي ضرباً.

ضربني كثيراً وبكل قوته حتى أغمي علي وسقطت على الأرض. استيقظت ووجدت نفسي ملقاة في الممر، والدم يسيل من فمي.

نهضت وذهبت للتأكد أن الأطفال نائمون، ودخلت إلى الحمام، ونزعت ملابسي فزاد خوفي عندما شاهدت آثار الضرب المبرح، وزني لا يتجاوز الثمانية والثلاثين كيلاً، ووجهي مورم، وكل جسمي يحمل كدمات سوداء. بدأت أبكي، أنا متأكدة أنه سيقتلني في النهاية. كيف سيكون مصير أولادي؟ كيف يمكن تفادي عنف أبيهم؟ بعد يومين اكتشفت أني حامل من جديد.

(7)

أنقذني الطبيب المعالج

شعرت أنني حبيسة القدر، كنت أتمنى لو وهبني الله هؤلاء الأطفال من رجل أحبه بدل أن يكونوا من رجل لا يكن لي أي احترام.

يشهد الله علي أني منحتهم كل الحنان والحب الذي يستحقونه، وهو ما حرمت منه طوال حياتي الزوجية. كنت أعاني من الضعف جسدياً ونفسياً. أعتقد أن هذا الحمل سيكون نهايتي بطريقة أو بأخرى. حالتي الصحية هذه أزعجت طبيبي المعالج، الذي قال لي إن هذا الحمل المتتابع خطر على صحتي، واقترح علي مخرجاً. لا يمكنك متابعة الإنجاب هكذا باستمرار، هناك وسائل لإيقاف ذلك، أتعرفين ذلك؟

- لقد سمعت أن هناك حبوباً لمنع الحمل، لكني كنت أظن أنها في متناول الأثرياء فقط.

- لا يمكنك أخذ قرار بمفردك، يجب مشاورة زوجك. طلبت منه أن يقترح عليه ذلك؛ لأني لو شاورته فسوف لا يسمعني.

فجأة دخل عمر بعد أن صد الباب بعنف، كانت إجابته صريحة: أنا من يقرر، لو أردت عشرة أطفال سوف يكون لها عشرة أطفال، تفاجأ الطبيب وفهم أن زوجي يحاول قتلي شيئاً فشيئاً. ثم قال لي: أخشى أن أراك في المقبرة المرة القادمة، وطلب مني قضاء الشهر الثامن في المستشفى، بعيدة عن عمر. فقلت له والأولاد لا أريد تركهم مع عمر لأنه سوف لا يهتم بهم،

ولا يرعاهم. تكفل الطبيب بكل شيء، تعهد بوضع الأولاد في حضانة تابعة لإحدى الجمعيات الخيرية. من الطبيعي أن تتعذب كل أم عند مغادرة أطفالها لكني كنت مطمئنة لعدم بقائهم مع أبيهم.

وضعت زكريا في 30 مايو 1968. يوم الأحد في الساعة الثامنة مساء كانت فرنسة في ذلك الوقت تشهد مظاهرات عنيفة. لكن لا يهمني يمكن للعالم أن ينهار أمامي، لا يهم ذلك لأن حياتي -وعمري 22 سنة- مجرد أطلال.

بعد الولادة منعني الأطباء من الرجوع إلى البيت، يجب البقاء ثلاثة أشهر إضافية بالمستشفى، بعيداً عن الأطفال. الأطباء فهموا أن زوجي خطر، فطلبوا منه عدم زيارتي.

أما الأولاد فقد بقوا في الحضانة بعيداً عن أبيهم وعنفه لأنه منذ مدة طويلة لا يكتفي بضربي بل يضربهم أيضاً. لمجرد صراخ أحدهم ينهال عليهم ضرباً، كان يضربهم لأي مبرر ويرعبهم حتى أصبحت نادية لا تمسك بولها لمجرد صراخه، أما جميلة تضع يديها فوق رأسها تلقائياً عند اقترابه منها، وكم ألوم نفسي على عجزي عن الدفاع عنهم؟ ولم يكن صياحي ولا توسلاتي تثنيه عن ضربهم. لأنه اكتشف أن ضربهم يؤذيني، ويؤلمني أكثر فأكثر.

بدأت استرجع قواي شيئاً فشيئاً، حاول عمر كثيراً من المرات الدخول إلى غرفتي لكن إدارة المستشفى منعته، واضطرت في يوم من الأيام طلب الشرطة لإيقافه. في هذه الأثناء بدأ الأطباء يعطوني علاجاً هرمونياً لاسترجاع عادتي الشهرية؛ لأني فقدتها منذ مدة، وسوف أتمكن أخيراً من التحكم في الحمل، كنت فخورة ومتحمسة لأني سوف أكون من أوائل اللاتي يستخدمن حبوب منع الحمل، لكن يجب أن أتناولها خفية عن زوجي. وإذا عرف ذلك سوف يقتلني.

خرجت من المستشفى آخر الصيف. انتقلنا إلى شقة في بايون، لأول مرة نسكن في برج دائري في الدور الثاني عشر، يبدو أن عمر تغير شيئاً ما، رافقني إلى البيت بهدوء دون أي عنف تجاهي أو تجاه الأطفال، ربما اغتنم فرصة غيابنا للتفكير والاقتناع أن عنفه قد يؤدي إلى شتات العائلة، وتفتيتها وربما هددته الشرطة بعدم التعرض لنا، وإلا... مهما كان الأمر ليست لي القوة الكافية لتغذية قليلٍ من الأمل الذي بداخلي. اكتفيت بالعيش في الحاضر فقط، وأخذ ما طاب منه دون النظر إلى المستقبل، كل ما يهمني هم أطفالي الأربعة، لقد كنت أتمسك بالحياة من أجلهم، لكن الهدنة كانت قصيرة. بعد مرور أسابيع من عودتي بدأ عمر يضربني من جديد. عرف كل سكان العمارة أنه يضربني. كيف يمكنهم تجاهل ذلك، ووجهي يحمل آثار عنفه باستمرار، وأحياناً أستخدم حمالة لحمل ذراعي أو جبيرة اصطناعية لدعم أحد أصابعي المتضرر، كل هذه الأشياء شاهدة على عنفه وضربه لي.

طلب مني بعض الجيران الفرنسيين تقديم شكوى ضده، ليس من حقه ضربه لك هكذا، يجب أن تمنعيه من التطاول عليك، هذا جميل، ولكن كيف أعمل؟ لو شكوته ماذا سيتغير؟ هل سيرمونه في السجن؟ لا بالطبع، وعندئذ كيف أواجهه في البيت؟ إنّه قادر على التخلص مني.

يجب أن يتمادى أكثر فأكثر في عنفه معي، لأشكوه. في إحدى الليالي بينما كنا جالسين حول طاولة الأكل طلب من جميلة عدم الاستمرار في مص إصبعها، ومثل كل الأطفال توقفت عن ذلك، ثم ما لبث أن رجعت إليه، تناول عمر كأساً وضربها به، سال الدم من رأسها، فأخذت تصرخ صراخاً شديداً.

زاد عمر من صراخه عليها لتكف عن البكاء، لكن صراخه ضاعف من رعب ابنتي المسكينة، لقد كان الجرح عميقاً، لذا حاولت إقناعه بنقلها إلى الطوارئ، وكان لي ذلك. طلب مني الطبيب إخباره بما جرى، أجابه عمر إن جميلة وقعت عن سلم العمارة، ثم التفت إلي، وقال لي بالعربية: إذا تكلمت سأكسر رأسك. بعد علاجها طلب منا الطبيب مراجعته بعد أربعة أيام للتأكد من عدم وجود أي مضاعفات.

هذه المرة ذهبت إلى المستشفى مع ابنتي فقط. استقبلني الطبيب نفسه، وخاطبني باللغة العربية. أكيد أن زوجك هو الذي ضرب البنت، أظن أنه يضربك أيضاً. دهشت لما قاله لي وعرفت أنه يعرف أن عمر هو الذي ضرب البنت، لأنه فهم ما قاله لي عمر. ومن الجلسة الأولى، عرف أن جميلة لم تقع عن السلم، ويعرف كل المشكلات التي تحصل لي. كان يعرف منذ الجلسة الأولى أنه لا يمكن مناقشة هذا الموضوع بحضور عمر لتجنب ضرب عمر لي عند عودتي إلى البيت للانتقام من الإهانة التي قد يتعرض لها. صارحته بما حصل وبما يحصل لي يومياً، كما أطلعته على حالة الرعب التي نعيش فيها باستمرار.

- ماذا تنوين فعله؟ قال ذلك بلطف.

- لا أستطيع فعل أي شيء. أولادي صغار، ولا أستطيع الإنفاق عليهم، لأني لا أعمل وليس هناك حل، أي حل؟ الطريق مسدود أمامي، طلب مني إصدار شهادة طبية تؤكد ضربه لي، ولأطفالي. لا، لا أريد ذلك. لأنه لو يعرف عمر سوف يقتلني، قلت ذلك باكية.

عمر بإمكانه فعل أي شيء، فهو يهددنا باستمرار، بترحيلنا إلى المغرب، وتركنا هناك بعد تمزيق وثائقنا الفرنسية. منذ ذلك الحين وأنا أخفي بطاقة إقامتي تحت شفاط الحمام مع علبة حبوب منع الحمل، أقوم بأخذ بطاقتي كل صباح، وأخفيها في مكان لا يصل إليه. في ملابسي الداخلية السفلى. بهذه الطريقة يمكنني الهروب في أي لحظة مع أطفالي. بالطبع أنا أعرف أنه لو عرف في يوم من الأيام خطتي لقتلني فوراً. لكن ذلك لا يغير شيئاً لأنه سوف يستمر في معاملتي بعنف لقتلي ببطء.

وأخيراً وجد الطبيب الحل المناسب، وهو: في كل مرة يستخدم فيها عمر العنف معي، أو مع الأطفال يجب مراجعة المستشفى لإعداد محضر بذلك. ثم يحتفظ بهذا المحضر في المستشفى حتى أقرر تقديم شكوى ضده. خرجت من المستشفى محملة بالآمال، يمكن أن يستمر ذلك سنين، كما يمكنني التحلي بالصبر مدة طويلة قبل اتخاذ القرار، ولكني متأكدة أنه سيأتي اليوم الذي أترك فيه هذا الرجل، لن أتركه يقتلني، أو يقتل أولادي.

لأول مرة شعرت بوجود حليف معي ربما يساعدني على الخروج من هذا النفق المظلم. سوف يضاعف قوتي لمقاومته، طلبت مني جارتي القيام ببعض أعمال الخياطة، فقبلت دون تردد. خياطة وكوي إنه عمل بسيط لكنه كثير بالنسبة لي، لأول مرة منذ أن تركت بيت عمي وأنا طفلة وجدت من يقوّم عملي، ويمنحني ثقته، ويصف عملي بالعمل الجيد. كان أهلي وزوجي لا يثنيان أبداً على ما أقوم به من عمل ولا ينعتونني إلا بالكسولة الفاشلة في كل شيء.

لأول مرة أشعر بالسعادة في العمل، أشعر لأول مرة أني أخطو خطوة في طريق الحرية أنا وأولادي، كل ما أكسبه من هذه الأعمال أنفقه على إطعام أولادي، وتأمين بعض حاجياتهم.

عندما أقوم بهذه الأعمال أشعر كأني جاسوسة تعمل في الخفاء، إني خائفة أن يكتشف عمر عملي في أي لحظة. سوف تكون العاقبة مأساوية؛ لأن عمر منعني من مخالطة الجيران، ولا يسمح لي بالعمل دون علمه وموافقته. إنها مغامرة كبيرة، وحتى لا يكتشف أمري وضعت خطة مع الأطفال، وهي عندما أشتغل في أبعد مكان من الشقة يقوم الأولاد بمراقبة الباب، ويخبرونني -عند سماع صوت المفتاح في الباب- بقدوم والدهم.

لكن خطتنا لم تدم طويلاً، دخل عمر في يوم من الأيام وفاجأني منهمكة في الخياطة. كان مفعماً بالخمر، وخشيت أن يضربني؛ لأني اشتغلت دون موافقته، ولكنه كان يشك في ذلك منذ مدة فلم يفعل شيئاً، لكنه أمرني بتسليمه كل ما أملك من مال. قلت له: ليس لدي أي شيء فانهال علي ضرباً وشتماً. شرحت له أن كل ما أكسبه أنفقه على تغذية الأطفال. لكنه لم يقتنع بذلك، وجن جنونه. انقض علي وحاول خنقي بحزام فستان النوم الذي أرتديه. حاولت المقاومة لكنه قوي جداً، أوشكت على الاختناق والموت، إنه في هذه المرة سوف يقتلني، ولكن في تلك اللحظة فكرت في أولادي، وماذا سيكون مصيرهم؟

لما عدت لوعيي كان قد غادر البيت، وأغلق الباب وأخذ المفتاح. حتى لا يكتشف الجيران الآثار التي في وجهي وجسمي. بعد هذه العلقة الساخنة فات الأوان وأصبح عنفه لا يؤثر في، بل يزيدني قوة وإرادة،

قمت بغسل وجهي وذهبت للاطمئنان على أطفالي. بعدها ذهبت بكل هدوء إلى المطبخ.

قمت مع جارتي -التي أخبرتها أنه في يوم من الأيام حاول التخلص مني بإلقائي من النافذة- بإعداد خطة لإخبارها عبر النافذة بما يحصل؛ فإذا رأت خيطاً أحمر معلقاً بالنافذة فهذا دليل على أن الوضع سيئ للغاية، ويجب إفادة الشرطة بذلك. فتحت إحدى رفوف المطبخ وتناولت الإشارة الحمراء، وعلقتها بالنافذة بعد مدة قصيرة جاءت الشرطة. شرحت لهم من خلف الباب أني سجينة بالبيت، والمفتاح مع زوجي انتظروا قرابة ساعة حتى حضر عمر وأخذوه إلى مركز الشرطة فوراً، وجاء طبيب لفحصي وإعداد تقرير بذلك. بموجبه تم وضعي في ملجأ خاص بالنساء المضطهدات من أزواجهن، أما الأولاد فتم تسليمهم إلى إحدى الحضانات الخيرية ببيارتز؛ منظمة المساعدة الاجتماعية. شرحت لي المشرفة أن كل هذه الإجراءات مؤقتة، وأن ثمن أمننا سوف يكون باهظاً. لكن كيف سأشرح للأطفال هذه التنقلات من حضانة إلى أخرى؟ سوف يشعرون أني تخليت عنهم، وذلك قد يؤثر فيهم نفسياً إلى آخر حياتهم. هذه المرة يجب أن أذهب إلى أبعد الحدود، ولا يجب أن أفقد الأمل، وأتخلى عن واجبي في آخر المطاف. يجب أن نخرج من هذا الجحيم الذي وضعنا فيه عمر.

بدأت بتقديم شكوى للحصول على الطلاق، بقي أن أفك ارتباطي به. لا يجب فعل أي شيء إلا بطلب من المحكمة، فكرت كثيراً في الهروب لكني أعرف أن عمر يفعل أي شيء لإيجادي، ولا أريد العودة إلى البيت مكرهة مصحوبة بشرطيين.

انتظرت بكل صبر قرار المحكمة، ربما تقف ضدي، ربما تجبرني المحكمة على أن أعيش مع زوجي، مع أني لا أصدق ذلك. هذا حكم بالإعدام علي إن حصل. كانت الجلسة في 10 نوفمبر 1970. كنت أرتعد عند دخولي مكتب القاضي، كان عمر واقفاً بجانبي وكنت أشعر بغليانه من الداخل، وكان مستعداً للانفجار في أي لحظة؛ لأنه في ثقافته يعتقد أن المرأة لا يجب أن تتمرد على سلطته أبداً، ولا المطالبة بالحرية، ولا التخلص من العبودية. كيف سيتقبل هذه الإهانة أمام أنظار الشرطة التي تحيط بنا، يا لها من إهانة.

التفت إليه القاضي، وسرد كل الاتهامات الموجهة له، عنف وضرب وجروح، وغياب عن البيت، وسوء معاملة.

- ماذا تجيب عن كل هذا يا سيد موسوي.

- هي زوجتي أفعل بها ما أريد، قال ذلك بشيء من التحدّي.

- سيد موسوي لا يتم ذلك بهذه الطريقة هنا.

انزعج القاضي من تصرف عمر، فقال له: أنصحك أن تذهب عند محام ليشرح لك القوانين الفرنسية، ومن اللحظة فصاعداً يمكن لزوجتك مغادرة البيت في أي لحظة، هي والأطفال.

- لا، سوف ترجع معي إلى البيت، قال عمر ذلك بعنف، بعد أن غادر كرسيه بعنف أيضاً.

لكن الشرطة وقفت بيني وبينه، طلب القاضي من عمر الجلوس بينما كان يسبني بالعربية حتى لا يفهم أحد ما يقوله، ثم قال لي إنه سيقتلني عند أول انفراد بي.

صرت أرتجف مثل الورقة.

كان بعض الأصدقاء في انتظاري بالسيارة خارج المحكمة لأخذي بعيداً عنه. تم وضع الأطفال من جديد في الحضانة حتى أجد مسكناً مناسباً أستقبلهم فيه. لن أراهم إلا في نهاية كل أسبوع، ودون أطفالي سوف لا يكون أي طعم لانتصاري، لكن ذلك أفضل لأننا أصبحنا أحراراً بعد هذا العذاب الطويل.

(8)

طريق الحرية لا يزال طويلاً

استقبلني أصدقاء باسك في بيريجو، وقد كان استقبالهم لي فيه شيء من الحرية، وهنا لا يستطيع عمر اللحاق بي. لأول مرة نمت دون تناول مهدِّئات «حبوب الفاليوم». منذ زمن لم أنم أكثر من ساعتين أو ثلاثة بالرغم من تناولي المهدئات. كم من مرة قال لي عمر إنه سوف يتخلص مني والأطفال لذا كنت لا أنام كثيراً، خوفاً من أن ينفذ وعده بقتلنا.

كلما غرقت في النوم صحوت منزعجة بعد دقائق، وهذه الليلة ولأول مرة نمت عشر ساعات متتالية. عندما استيقظت شعرت كأني ولدت من جديد. بدأت حياة جديدة. سوف لا أرى هذا الرجل الذي كان يعاملنا معاملة الحيوانات، وأخيراً تخلصت من العبء الثقيل الذي كنت أحمله؛ عبء كله آلام وإهانات.

أنا الآن أسكن عند أصدقاء لي ولزوجي. سوف أبقى عندهم حتى أحصل على عمل وسكن. لقد قاموا بمساعدتي باختيارهم، ولم يترددوا ثانية في استضافتي.

في يوم من الأيام دق الجرس قبل تناول العشاء، كان رب البيت موجوداً، فنظر من العين السحرية قبل أن يفتح. طلب مني الذهاب بسرعة إلى الغرفة قبل أن يفتح الباب، لأن عمر هو الزائر. جلس ساعة وهو يتحسر، لعل الأصدقاء يساعدونه على العثور علي، قال لهم إنه سوف يغير سلوكه،

وأنه لا يستطيع العيش بعيداً عني، أما أنا فكنت أقول لنفسي ربما أنت تريد ذلك، أما أنا فلا أريد العيش معك.

تكررت زيارته عدة مرات، ولكن أصدقائي لم يغدروا بي. بعد ثلاثة أسابيع طلبت المشرفة الاجتماعية مقابلتي، لقد وجدت لي عملاً في مصنع معلبات بيايون. صرخت من الفرح. سوف أحصل على راتب يسمح لي باستئجار سكن لأتمكن من العيش فيه مع أولادي الذين لا يزالون في الحضانة الاجتماعية.

شرحت لي أنه ما دامت حياتي غير مستقرة لا يمكن لي أخذ الأولاد نهائياً، يمكن لي أخذهم في نهاية الأسبوع فقط. سوف نعيش هكذا مؤقتاً حتى يتحسن وضعنا. في هذه الأثناء يتواصل الحنان والحب بيننا والدفء أيضاً.

لكن الهدوء لم يدم كالعادة؛ لأن عمر حصل على أمر يسمح له بأخذ الأولاد عنده مرة كل أسبوعين.

كان هذا الأمر كالخنجر الذي طعنني من الخلف، أنا أعرف لماذا يريد أن يراهم، لا يريد أخذهم لتزويدهم بالألعاب، ولا لأخذهم في نزهة؛ بل ليساعدوه في العثور علي، لست مرتاحة لما يحصل، بدأت أراقب خلفي عندما أسير في الطريق. كنت أقف خوفاً عند سماع أي حركة. أشعر كأن ظل عمر يقترب مني باستمرار.

ما كنت أخشاه حصل بعد شهر، صارحتني ابنتي نادية أن أباها طلب منها أن تدله على سكني. سوف أكون طيباً مع ماما أنا آسف على ما حصل من قبل، ولن أضربها أبداً، وسوف نعيش مع بعضنا بعضاً من جديد، هذا

ما حاول أن يقنعها به لكن نادية رفضت الوقوع في فخه، ولم تدله على البيت، لكني أتوقع أنه سوف يصل إلى غايته عن قريب.

وحصل ذلك. في يوم السبت عندما رجعت إلى البيت -بعد تناول الغداء عند إحدى صديقاتي- وجدت عمر مع نادية في آخر الممر، فانقض علي ووضع سكيناً على رقبتي. هكذا هربت وتتصورين أنك ستفلتين من قبضتي، سوف ترجعين معي إلى البيت، وإلا سأذبحك. أنا أعرف أنه بإمكانه فعل ذلك. كانت نادية خلفه ترجف من الخوف، وكانت واقفة والبول يتسرب من ملابسها. طيب، طيب توقف أولاً عن التهديد سأرجع معك، قلت له ذلك، وأنا أرتجف. نظر إلي نظرة كلها تحد ثم أدخل السكين في جيبه. تعالي وسحبني معه، ذهبت معه حتى وصلنا إلى سيارته، تبعته مثل الحيوان الذي سيسلم إلى المسلخ، ذهبنا إلى الحضانة لإيداع الأطفال ولا تزال نادية تحت تأثير عنف والدها، وعندما تقدم عمر من الأولاد لوداعهم ابتعدوا خوفاً منه، واختبأ كل واحد منهم وراء الآخر خلف السيارة.

إني فعلت ذلك لأني أحب ماما، قال لهم ذلك بعنف، إني أردت أن تعود إلى البيت فقط. كان الأطفال ينظرون إليه بخوف وتعجب، وأفواههم مفتوحة. كانوا عاجزين عن الإجابة عن كلامه، وكأنهم انشلوا، كم كنت أحقد عليه في تلك اللحظة، وأحقد عليه من صميم قلبي، أحقد عليه لأنه يرعب أطفالي، وأتمنى أن ينسوا ذلك في يوم من الأيام. عند رجوعنا إلى بيته بدأ يغازلني من جديد. سوف ترين لقد تغيرت، وسوف نبدأ حياتنا من الصفر وهكذا. نظراً لماضيه، لن يستطيع إقناعي بأكاذيبه، أنا أعرفه.

سكنه عبارة عن مزبلة، وملابسه الوسخة في كل مكان، والجلاية ملأى بالصحون، وكل شيء يوحي بالبؤس والوسخ.

- سوف أخرج وأرجع بعد قليل، يمكنك ترتيب البيت حتى أرجع، وخرج وأغلق الباب بالمفتاح، وهكذا وكما يُقال «رجعت حليمة إلى عادتها القديمة». بعد كل هذا يريد مني أن أعود إلى البيت لأخدمه مثل الخادمة، لكن هذه المرة لن أتركه يفعل ما يريد يجب أن أتركه من جديد، وأبتعد عن الخطر.

ألقيت نظرة عبر النافذة، فرأيت سيارته تبتعد. هذه فرصتي كان البيت في الطابق الأول، قفزت من الشرفة، وأخذت أجري دون الالتفات إلى الخلف. ليس هناك حل غير هذا، لقد دفعت الثمن غالياً للحرية القليلة التي بدأت أنعم بها والأمن لأطفالي، ليس من حقي التراجع الآن. بعد أشهر طلبتني المشرفة الاجتماعية لتخبرني أنها وجدت لي عملاً بأحد الملاجئ لليتامى في «سانت ارماند دو فرج» على بعد 25 كيلاً من بيريجو.

بالإضافة إلى العمل هناك سكن لإيوائك مع أطفالك، وأخيراً وبعد أربع سنوات يمكنني العيش بأمان مع الأطفال، وداعاً للحضانات، وداعاً للمؤسسات الخيرية.

في هذا المكان الهادئ، وفي الريف بالذات يمكننا استئناف حياة جديدة. بدأ الأولاد ينتعشون في هذا الجو الهادئ، وبدأت جروح الماضي تلتئم. لقد تحسنت دراستهم، وأصبحت فخورة أن كفاحي بدأ يعطي ثماره.

في سنة 1971 أقام الملجأ حفلاً كبيراً بمناسبة آخر السنة الدراسية، وهناك خرفان مشوية ورقص، وكان الجو مفعماً بالأفراح تحت أشعة

الشمس الحارقة. فجأة رأيت شخصين يقتربان، أحدهما عمر أعرفه من بين ألف شخص، توقف قلبي من الخوف كيف عرف المكان؟ ومن دلّه؟ عندما تعرفت على رفيقه فهمت أنه أخي. لقد كلم عمر أهلي، وقال لهم، إنّه قلق علي، فوقع أخي في الفخ، وقدم إلى فرنسة.

اضطررت إلى الجلوس حتى لا أنهار. شعرت كأني حيوان بري هرب من قفصه، وتم القبض عليه من جديد. لا يمكن أن أرتاح أبداً. هذه النهاية؛ قلت ذلك، وهما يقتربان مني. كان أخي منزعجاً أمام هذا الموقف، لا يعرف كيف يبدأ مخاطبتي. قال للأولاد: كيف تلبسون جزمات طويلة في هذا الحر، فقلت له: للوقاية من الثعابين.

- كان بإمكانك السكن في مكان آخر مكان لا توجد فيه الثعابين.

- لا أخاف من الثعابين بل أخاف من مَنْ قمت بإحضاره هنا. قلت ذلك ونظرت إلى عمر.

- ما زلت صغيرة للعيش هنا، والأولاد بحاجة إلى أب يرعاهم. لن تجدي أباً هنا، كان عمر منفرداً، ولم يتلفظ بكلمة واحدة.

- أنت تلوثين سمعة الأهل، قال أخي ذلك، وكأنه يقدم لي الدليل القاطع، ولكن ماذا يظن. هل يتوقع أن أضحي بحياتي من أجل رجل تخلى عني؟ بقيا هكذا مدة أسبوع يضغطان علي ويحاولان إزعاجي من أجل عودتي إلى بيت الطاعة. ما العمل ها أنا من جديد أتخبط في الوحل، هل أهرب مرة أخرى؟ ليس لي الشجاعة للقيام بذلك، ومن جهة ثانية هناك الأطفال وبالرغم من غيابه، وبالرغم من عنفه فعمر يظل أباهم، والأولاد أفهموني أنهم تعبوا من التنقلات

من مركز إلى آخر، وملوا من هذه الحياة المهتزة، وهذا الهروب الدائم، وهم أيضاً خائفون من المشكلات التي ستعيد نفسها من جديد، ولكن من حقهم أن يعيشوا في حياة عائلية طبيعية في بيت طبيعي مع أب وأم.

مهما كان الأمر ليس هناك حل آخر الآن. بعد ما وجدنا عمر فلن يتركنا مرة أخرى، وأنا سئمت من المعركة في الوقت الحاضر، أصبحت لا أثق في نفسي، لكن مرة أخرى ليس لي الحق في رفض تجربة جديدة، نال التعب مني، وكادت أعصابي تنهار، فقبلت العودة، وقلت لأخي سوف أحاول مرة أخرى، ولكن إذا فشلت فقل للأهل لا يهمني ماذا يقولون، لا يرغمني أحد بعد ذلك، ويمكنهم لومي كما يشاؤون.

مهما كان فما زلت أتمسك بالأمل الأخير، وهو الطلاق الرسمي. بعد بضعة أشهر وفي حالة تعثر الأمور مع عمر يمكنني التسلح بقرار القاضي، والتخلص منه نهائياً بصفة قانونية. انتقلنا فوراً إلى الألزاس حيث وجد عمر عملاً، والأطفال من جهتهم سوف يذهبون في عطلة مدرسية جماعية حتى نتمكن من إعداد سكن لائق بهم. لحسن الحظ بقي أخي معي لمدة شهر ليرى كيف ستسير الأمور. هو أيضاً لا يثق بوعود عمر المعسولة.

أثناء الشهر الأول قام عمر بمجهود كبير ليفي بوعده، لا ضرب ولا عنف، لكنه يرفض أن أعمل قال لي: إذا أردت العمل تسلميني الراتب بالكامل، وإلا لا مكان لك سوى البيت. طبعاً رفضت ذلك مع أننا بحاجة ماسة إلى المال، إضافة إلى راتبه كان عمر يحتفظ بمنحة الأطفال كاملة، ولا ينفق سوى ما يكفي لإطعام الأطفال، ومع ذلك فلا يأكلون دوماً بما فيه الكفاية.

في الأيام الأولى من حياتي معه في المغرب كنت أظن أنه يرفض أن أعمل بسبب التقاليد والعادات المختلفة الخاصة بالمرأة، وكان عمر يرى أن عمل المرأة فيه شيء من الانحطاط. لكني الآن تأكدت أن الأمر أكثر من ذلك، فهو يرفض أصلاً مساواة المرأة بالرجل، ويرفض كل شيء يسمح لها بالتحرر، بالنسبة له المرأة يجب أن تبقى تحت سلطة زوجها ولاحق لها في إثبات وجودها. في المغرب كنت متمردة ومعارضة لوضع المرأة، ولكن هنا في فرنسة هناك مساواة بين الرجل والمرأة، ويشجعون عمل المرأة. لذا أعدّ تفكير زوجي الخاص بالمرأة شيئاً غير مقبول.

قررت أن لا أتهاون في الأمر، وأتحدى الممنوعات، سوف أحاول إيجاد عمل في إحدى شركات تصنيع الأقمشة، وفي الصباح أخذت أرتب البيت في انتظار خروج زوجي. عند انطلاق سيارته سوف أذهب إلى العمل. عندما تنتهي حصة الصباح أعود بسرعة إلى البيت.

استمر ذلك شهراً بعدها أخبرني مدير الشركة أنه سيغير أوقات العمل ولا يمكن لي الاستمرار في أداء لعبتي، لا خيار لي، إما التوقف عن العمل أو وضع زوجي أمام الأمر الواقع. قررت إفادة عمر بأني أعمل.

كنت أنتظر رداً عنيفاً كالعادة لأني لم أتقيد بأوامره وكذبت عليه. في الماضي كان يضربني على أقل من هذا، أما اليوم فلم يحصل ذلك. تقبل الأمر بكل هدوء، كأنه كان يعرف ذلك. طلب مني تسليمه ما تبقى من الراتب، استسلمت للأمر الواقع وذهبت إلى الحمام حيث أخفي النقود، ثم رجعت، وسلمته ظرفاً يحتوي على ما تبقى من الراتب. عدّ ما في الظرف براحة متناهية، ووضع المبلغ في جيبه، وخرج دون أن يتلفظ بكلمة واحدة. مهما كان الأمر لم أخسر شيئاً، لقد احتفظت بعملي، واستمر عمر في

مطالبتي بتسليمه راتبي لكني في كل مرة أقول له أني أنفقته على متطلبات البيت، وهذه هي الحقيقة بالطبع؛ لأنه لا ينفق شيئاً على البيت، ولا يسدد الإيجار مع ذلك كنت أوفر شيئاً من المال يسمح لي بشراء بعض الكماليات للأطفال، وتوفير ما تبقى للأيام الصعبة لتأمين مستقبل الأطفال.

أصبحنا نتصرف كالغرباء كل واحد يرعى حياته الخاصة، أنا أهتم بعملي ورعاية الأطفال، وهو يهتم بعمله وسهراته و يعود إلى العنف أحياناً لسبب ما. مثل ما كان يحصل أيام زواجنا.

في إحدى الليالي عند الساعة الثامنة مساء طلب مني عمر مرافقته لشراء السجائر، عند ركوب السيارة التزم الصمت، وفجأة انتبهت أنه بدل أن يتجه إلى وسط المدينة اتجه إلى الريف التفت إليه وقلت:

- إلى أين تذهب؟

- سوف ترين، قال ذلك بشيء من الرضا عن النفس.

- إنها مفاجأة.

بعد نحو خمسة عشر كلم توقف بعنف، نحن بالريف.

- سوف تفكرين. ثم ألقى بي خارج السيارة، إذا أردت الاستمرار في العمل يجب عليك إعطائي الراتب كله، وإلا البقاء هنا سوف أعود لأخذك بعد ساعة، ولو حاولت الركوب مع أحد سأقتلك. كان الجو بارداً، وكنت في ملابس النوم، ولا أعرف أين أنا. سيطر الخوف علي. مرت خمسة دقائق لا حياة لمن تنادي، ولا خبر عن زوجي، بعد مرور عشر دقائق ثم ربع ساعة ثم ثلث الساعة ثم ساعة. رجع

عمر وقال لي بعنف: اركبي، لم أتمكن بعد من الجلوس، وإذا به ينطلق مثل السهم، زاد من السرعة كأنه يشارك في سباق الرالي، ثم انطلق مسرعاً أكثر فأكثر تمسكت بكل قوة بالمقعد إنه يريد قتلي، لقد جاء هنا لينهي حياتي وحياته، كنت على استعداد للموت أغلقت عيناي، وفكرت في أطفالي. أترين كيف يمكن لي أن أرعبك ثم خفف السرعة.

إن زوجي يتلذذ بتعذيبي، وأيامي المتبقية معه كانت مرهونة بما سيفعله بي في المستقبل، في 30 ديسمبر 1971 كنا نجهز أنفسنا لاستقبال السنة الجديدة. مناسبات كهذه قليلة مع عمر كنت أنتظر مع الأطفال هذه المناسبة بفارغ صبر، لنخرج قليلاً من جهنم التي نعيش فيها يومياً. طلب مني عمر تغيير ملابس الأطفال، هذه الليلة يدعونا إلى العشاء في المطعم. دخل إلى الحمام ليتهيأ، وبقي هناك كثيراً. خرج منه بعد أن حلق ولبس أجمل بدلة لديه كلتا رمادية اللون وأعترف أنه أنيق هذه الليلة، قال لي قبل أن يصد الباب وراءه.

- سوف أخرج قليلاً ثم أعود بعد دقيقة.

بقينا في انتظاره في غرفة الاستقبال، كاد الأطفال أن يطيروا من شدة الفرح؛ لأنهم سيخرجون من الجحيم قليلاً، ليس من العادة خروج العائلة للترفيه، فهذه من المناسبات القليلة. مرت ساعة ثم ساعتان، دون أن يرجع عمر. الأطفال جياع، وليس لدي شيء من البطاطس والملح، لتغذيتهم بها. عند الساعة الواحدة ليلاً اكتفوا بالنوم أمام التلفاز، ورجع عمر عند الساعة الخامسة صباحاً، لم يتلفظ بكلمة واحدة، ولم يقدم أي مبرر لتأخره، كيف يمكنه القسوة بهذا الشكل على أطفاله؟

في الصباح اتخذت قراري، اتصلت بالمشرفة الاجتماعية، لتساعدني على مغادرة البيت، من جديد أستعدّ للهروب. في ثلاثين يناير 1972 أصبح كل شيء جاهزاً، لقد وجدت لي المشرفة مكاناً في إحدى المراكز الخاصة بالنساء المضطهدات من أزواجهن، أما الأطفال سوف يتم وضعهم بمبيت للأطفال، حتى تستقر الأمور. لأول مرة شعرت بالراحة عند الابتعاد عنهم، لأنه من السهل الهروب بمفردي عند الضرورة، أما مع الأطفال فذلك صعب جداً، ولا أريد أن يعذبهم أبوهم كالعادة.

في ذلك اليوم عاد عمر متأخراً، طلب مني الاقتراب منه، لكني تظاهرت بالنوم فنام، كنت أنظر إليه وأتفحصه، لو يصحو في هذه اللحظة سوف يقرأ ما بداخل عيني، أنا أكره هذا الرجل وأحقد عليه أكثر من أي شيء في العالم، إني على استعداد لقتله وتعذيبه مثلما يعذبني، أخذ كل شيء مني، سلبني طفولتي، وحريتي وشرفي، والأخطر من هذا كله أنه يقوم بتحطيم براءة أطفالي، بضربهم ومشاهدتهم لما تتعرض له أمهم من العنف اليومي، لقد حرمهم من العيش بتوازن، وحرمهم من حبه لهم من كثرة ضربه لهم، وحرمهم من الفرح مع أمهم بعيد ميلادهم، وحرمهم حتى من التغذية الكافية، بينما هو يسهر ويسكر. زد على ذلك فهو يجبرهم على العيش في الرعب والعنف، كما يجبرهم على التنقل من مبيت إلى آخر منذ ولادتهم، إني أشعر بالغثيان أريد أن أراه ميتاً.

حاولت أن أنام لكني لم أستطع، عند الساعة السابعة والنصف استيقظ ثم ذهب إلى العمل. عند خروجه أسرعت إلى جارتي، وأخذت أمتعتي التي أخفيتها عندها، وذهبت إلى المركز الذي وجدته لي المشرفة الاجتماعية، بقيت هناك شهرين مع الأطفال. كنا نقيم كلنا في غرفة واحدة، ونعاني من

صعوبة الحياة فيها؛ لأنه ممنوع على الأطفال اللعب في الممرات، والخروج من الغرفة، وأنا لا أستطيع تركهم وحدهم والخروج للبحث عن العمل. كل الطرق مسدودة أمامي لكني أستطيع التصرف، يجب أن أطلب من المشرفة الاجتماعية وضع الأطفال في المبيت من جديد، قبل إغلاق مركز المشرفة الاجتماعية توسلت للجميع بقبول طلبي.

- أعدكم أني سأحاول الحصول على عمل، وبعدها سأتكفل بالأطفال لنعيش عيشة عائلية مرضية، وهذا وعد مني.

- قلت ذلك باكية.

كان الأولاد ينظرون إلي كأنهم موافقون على ما أقول، لقد تألمنا كثيراً حتى أصبحنا نتفهم بعضنا بعضاً، ليس لدي إلا أطفالي، وهم يعرفون أني سأفعل كل شيء من أجل إنقاذهم من هذا الجحيم.

أبوهم لا يهمه الأطفال، ويبدو أنه اختفى من ذاكرتهم، لكنه لم يختف من ذاكرتي. في نهاية الأسبوع عندما أذهب لإخراج الأطفال، أشعر بالمغص خوفاً من أن أفاجأ بقدوم والدهم أو مفاجأتنا في إحدى الشوارع، كم من الوقت سوف يتركنا لبناء مستقبلنا قبل عودته لتدمير كل شيء.

(9)

فرنسة تمد لي يدها

بدأت أعمل باستمرار لكي أؤمن كل طلبات الأطفال، وأفعل كل شيء من أجلهم، لقد كنت أعمل بائعة عند أحد الجزارين، وعملت عاملة وخياطة أيضاً، وكنت أترك أي فرصة عمل، وأنتقل من عمل إلى آخر حسب أهمية الراتب.

في يوم من الأيام، وأنا أعمل في إحدى مشاغل الخياطة أخبرتني إحدى الزبائن أن هناك عملاً دائماً بالبريد وإنهم يبحثون عن امرأة تقوم بخدمة الزبائن، اذهبي إلى هناك، وقدمي طلباً للعمل ربما يبتسم لك الحظ، ويقبلونك من يدري؟

عند الساعة الثانية عشرة ذهبت إلى البريد، وقابلت المسؤول عن التوظيف، الذي وافق على توظيفي على سبيل التجربة مدة شهر. بقي أن أطلب من صاحب العمل بالمشغل أن يمنحني إجازة شهر؛ لأنه لا يمكن الاستقالة من عملي هناك لأنه في عدم قبولي بالبريد سوف أجد نفسي بلاعمل، ولا يمكن لي أخذ الأولاد من المبيت. قبل صاحب المشغل بمنحي خمسة عشر يوماً فقط هذا أقل ما يمكن أن أحصل عليه، هذا كاف فلا يمكن التفريط في هذه الفرصة وبدأت فوراً العمل في بالبريد.

بعد أسبوعين من العمل وقبل موعد نهاية التجربة قمت بمراجعة المسؤول الذي وظفني وشرحت له وضعي.

- سيدي إذا كنت لا تريد استمراري في العمل، فلا إحراج في ذلك؛ بل أريد معرفة رأيكم في عملي لكي لا أفقد عملي الآخر، وأصبح بلا عمل، نظر إليَّ طويلاً بتعجب، وكأنه يقول هذه جريئة ولا تستحي، ثم قال: ليس هناك مشكلة سوف تستمرين معنا.

صرخت من الفرح أنا موظفة خدمات بالبريد، هذه ليست الوظيفة التي كنت أحلم بها ولكن من يدري لعلي فيما بعد أحصل على فرص أفضل لتطوير نفسي.

بعد ستة أشهر طلب مني رئيس القسم مقابلته بالمكتب، ماذا يريد مني؟ دخلت إلى مكتبه وأنا لا أستطيع مواجهته فقال لي.

- عائشة أنت لا تجيدين القراءة أليس كذلك؟

- لا، لا لم تمنح لي الفرصة للتعلم كما ينبغي.

- وليس لك رخصة قيادة أيضاً؟

ـ لا.

كنت خائفة جداً مع أني عملت ما في وسعي لأنال رضاه، وأحب العمل في هذا الجو المفعم بالصداقة لكن أسئلته تخيفني.

قال من جديد: طيب لدي مشروع يخصك، لكن قبل ذلك يجب عليك التسجيل في دروس خاصة لمحو الأمية، وتعلم اللغة الفرنسية كما يجب عليك تعلم قيادة السيارة لاستخراج رخصة، بعد الانتهاء من ذلك سجِّلي اسمك للمشاركة في الاختبار لتصبحي مأمورة داخلية بالبريد.

لم أصدق ما سمعت كانت فرحتي عارمة إلى درجة أني لم أستطع التلفظ بكلمة واحدة للتعبير عن شكري.

- ثم تابع: أظن أنك قادرة على ذلك. سوف أعمل كل ما في استطاعتي لتلبية رغباتكم وتأكيد حسن ظنكم في. قلت ذلك والدموع تتدفق من عينَيّ.

خرجت من المكتب وكأني خرجت من السحاب، ياله من بلد جميل من بايون إلى مولوز مروراً ببيريجو لم أجد هنا سوى أشخاصٍ لا مثيل لهم، إنهم أشخاصٍ تفهموا وضعي وأصغوا إلي وحاولوا مساعدتي دون أي مقابل ما عدا عرفاني وصداقتي.

عندما قدمت إلى مولوز حذرني الكثير من أهل الألزاس، إنهم أبرد من بلدهم وأشد زمهريراً من شتائهم، بدلاً من هذا لم أجد سوى الجود، كم أحب طريقة عيشهم؟ طريقة بسيطة بلا مشكلات. طبعاً فهم لا يدعونك بسهولة إلى بيوتهم، لكنهم عندما يتقبلونك يفعلون ذلك من صميم قلوبهم وعندما يمنحونك صداقتهم، فهي صداقة الدهر. بعد كل هذه المطبات التي وقعت فيها، لا أجد ما أقوله بخصوص تصرف هؤلاء الناس معي، ومساعدتي دون مقابل، دون النظر إلى ديني أو عرقي أو لون بشرتي، وبغض النظر عن وضعي.

بدأت أشتاق لبداية الدروس الفرنسية، وأشعر كما تشعر كل صبية تذهب إلى حفل راقص أول مرة، بعد سنين من الجهل سوف أتعلم القراءة والكتابة بالفرنسية، كم أنا سعيدة؛ يا لها من حرية

بدأنا ندرس بموجب حصتين في الأسبوع، اللغة الفرنسية صعبة جداً أكثر مما توقعت لكني متمسكة بذلك، لا تهاون ولا تراجع، لكي لا أخيب أمل من وثق بي، ومنحني فرصة كهذه.

سوف أستطيع قراءة الجرائد قريباً، وأستطيع كتابة كل ما يتطلبه العمل، مما يسمح لي بالاندماج بسهولة، لأول مرة أشعر بالانتماء لهذا المجتمع، لا أشعر أني أجنبية ببلد أجنبي لقد منحني هذا البلد كل شيء، وأنا أكن له كل الحب من كل قلبي.

في مركز البريد كل الموظفين مجندون لمساعدتي في إعداد الاختبار، فهذا يعلمني قيادة السيارة وذاك يساعدني في مراجعة الدروس، لذا يجب أن أنجح. لكي لا أخيب ظنهم فيّ. ظهرت النتائج في الرابع من أبريل 1973م فتح ظرف النتائج لم أصدق لقد نجحت. انتفض قلبي من الفرح، وأصبحت عاجزة عن استرجاع أنفاسي، وأخيراً نجحت، نجحت في أول تجربة، أنا البنت الأمية التي زوّجها أهلها إلى سكير لا يعرف إلا العنف. من يصدق أني أصبحت موظفة لدى الجمهورية الفرنسية.

كنت أرتجف وأنا ذاهبة إلى مدير المركز لأزف له البشرى، لكن هذه المرة أرتجف من السعادة والفخر، لم يبق سوى هدف واحد، هو إيجاد سكن مناسب لأعيش فيه مع أطفالي، وطلبتني مديرة إحدى وكالات العقار التي رويت لها قصتي يوم الجمعة، لدي شيء مهم لك شقة في عمارة جديدة، ذهبت فوراً لرؤيتها. عند وصولي لاحظت وجود صندوق بالمدخل فسألتها ما هذا؟ أجابتني إنه «برلوفون» أي جهاز تكلم رقمي، قالت ذلك وهي واثقة مما تقول، لأول مرة أسمع بهذا الجهاز، ألم أقل لك إن هذه الشقة

ستعجبك، قالت ذلك مبتسمة، الإيجار مرتفع لكن ذلك لا يهم سأحاول إيجاد عمل ثان إذا أجبرتني الظروف. هنا سوف نكون بأمان، ولن يتمكن عمر من تجاوز هذا الحاجز.

بدأت بتجهيز الشقة بكل ما استطعت توفيره؛ اشتريت خمسة فرشات من إسفنج وطاولة وتلفاز، هذا قليل ولكن بالرغم من ذلك أشعر بالراحة والاطمئنان، لأني سأكون ببيتي، لغاية انتهاء السنة المدرسية، تركت الأولاد بالمبيت، وأستقبلهم عندي مرة كل أسبوعين، إني أتألم لعدم العيش معهم، لكن بقاءهم بالمبيت فيه ضمان لنجاحهم في الدراسة. لكن لاحظت -بالرغم من ابتعادهم عني- أنهم بدؤوا يبنون حياتهم شيئاً فشيئاً، عند إعادتهم إلى المبيت يوم الأحد مساء تنفجر جميلة -التي عانت معي من عنف أبيها تنفجر- بالبكاء؛ لأنها لا تريد العودة إلى المبيت، وتفضل البقاء معي، أما الأولاد فقد تعودوا لأنهم أصغر سناً. بالطبع عبد الصمد عمره ست سنوات وزكريا أربع سنوات، في هذا العمر من السهل تقبل الحياة كما هي ربما يريدون إخفاء ألمهم وعدم إظهاره أمامي سنعرف ذلك مستقبلاً.

في العمل ارتبطت بصداقة مع بنت من أصل بولندي، هي حامل من شخص توفي حديثاً في حادث سيارة، لم يصدقها أهلها فرموها في الشارع.

تألمت كثيراً عندما سمعت قصتها، فرعيتها بكل حناني وعطفي، عرضت عليها أن تعيش معي بصفة مؤقتة حتى تتحسن ظروفها، قبلت ذلك وأصبحنا لا نتشارك في السكن فقط بل أكثر من ذلك، لقد اكتشفنا العديد من الصفات المشتركة، أولها كلانا ضحية التقاليد والعادات البالية التي تتمسك بها العائلات، عشنا سنة مفعمة بالحب والصداقة، ولأول مرة

شعرت أن لي صديقة أعتمد عليها، وتعتمد علي تفهمني وتقول لي كل شيء، وتشاركني كل شيء دون خوف. كنا متفاهمتين على كل شيء، وخصوصاً على عدم استقبال أي رجل بالبيت، هي عازمة على الزواج إذا أمكن، لكني أنا لا أفكر في ذلك، لا أفكر فيه إطلاقاً. كل علاقتي مع قليلٍ من الرجال الذين أعرفهم علاقة صداقة فقط ومزعجة أحياناً، فالعرب الذين أقابلهم في الشارع لا يفكرون إلا في فريسة سهلة لإشباع رغباتهم فقط، هذا هو طبعهم، بالنسبة لهم المرأة الوحيدة لا تتمسك إلا بقليلٍ من الفضائل، هل سيتجرؤون على عدم احترامي لو يعرفون من هو أبي، ومن هو أخي؟ حتى هنا بفرنسة يتمسكون بالعادات والتقاليد التي ترفع من قيمة الرجل، وتحط من قيمة المرأة التي يعدونها عبدة لتنفيذ أوامر سيدها فقط.

ليست لي الرغبة، ولا أريد أي رجل، أريد فقط إعادة بناء حياتي، وحياة أطفالي.

في شهر مارس 1974 هناك غليان في موقع العمل، فالكل مجند لتحضير واستقبال المرشح لرئاسة الجمهورية، في ذلك اليوم كنت أتمتع بإجازة، لكني أريد أن لا تفوتني هذه الفرصة لأي سبب. بشيء من الحظ سوف أتمكن من رؤية فاليري جيسكار دستان المرشح للرئاسة، لا أستطيع المشاركة في الانتخابات، لكني أعدّ هذا الرجل؛ الذي قد يصبح رئيس فرنسة القادم، يتمتع بكل المواصفات التي تتطلبها الرئاسة، فهو يمثل لي حلمي في الاندماج والحرية.

أخذت أطفالي وذهبت إلى البلدية حيث سيقام حفل الاستقبال، لحسن حظي وصلت في الوقت المناسب للمشاركة في هذا الحفل الرئاسي، شاهدت زميلاً في العمل مسؤولاً عن إعداد المكبر الصوتي، سألته عن

المكان المناسب الذي يمكنني من رؤية المرشح بسهولة. تعالي معي هنا يمكنك رؤيته بكل يسر، ولا يمكنك تفاديه.

بعد قليل قدم الموكب الرئاسي، والرئيس المرشح كان محاطاً بنحو عشرين شخصاً، وضعت الأطفال في المقدمة ليتمكنوا من رؤيته انظروا، انظروا هذا هو رئيس فرنسة القادم، قلت ذلك بشيء من التعجب والإثارة.

لم أكمل كلامي حتى أصبح أمامي، والغريب أنه ألقى نظرة تجاهي، وتوقف أمامي ولو اقترب كل هذا العالم مني لسمع دقات قلبي.

- هل كلكم إخوان؟ قال ذلك مازحاً.

- لا، هم أولادي. قلت ذلك محاولة التعمق في النظر إليه.

- أهنئك على هؤلاء الأطفال، وهل أنت مرتاحة في فرنسة؟

كيف يمكن أن أعبر له عن عشقي لهذا البلد الذي تكرم علي بالكثير، الذي أشعر فيه كأني خلقت فيه إلى الأبد.

- نعم سيدي أنا أحب فرنسة قلت ذلك بكل بساطة.

وضع يده على رأسي وقال:

- جميل، جميل هذا.

لم أصدق، لقد خاطبت الرئيس المقبل؛ رئيس الجمهورية الفرنسية، كانت صدمتي وفرحتي كبيرة، وهذا ما دعاني إلى إفادة كل المارة بذلك مثلي مثل الطفلة الصغيرة التي ترى الأب «نويل» أول مرة، كان ذلك قمة بالنسبة لي وكأن فرنسة نفسها تخاطبني، وتتهيأ لاستقبالي وترحب بي.

في هذه الأثناء ظهر عمر من جديد.

ذهب إلى القاضي وطلب منه عنواني مدعياً أنه يريد رؤية الأطفال، لقد تزوج بامرأة استقدمها من المغرب. اتصلت بي سكرتيرة القاضي وقالت لي: إنه يريد رؤية الأولاد، ووعدهم بتصرف لائق. لست أدري ماذا يعني ذلك مع هذا الرجل؟ لكن ليس لي خيار. لذا يجب أن أستعدّ لزيارته المحتملة متمنية أن لا نتعرض لأي سوء.

في إحدى الليالي رن الجرس، ونحن حول طاولة الطعام اتجه الأطفال للنافذة لرؤية من استخدم الجرس من الخارج.

قالوا بصوت واحد بشيء من الخوف.

- إنه الوالد.

قلت لهم بعد أن تأكدت أنه ليس وحده.

- لا تخافوا هناك امرأة معه لن يحاول إيذاءكم.

تكررت هذه الزيارة ثلاث مرات أو أربع، في كل مرة لا يبقى إلا قليلاً أمام الباب ليسلم على الأولاد وينصرف.

- غريب هذا التصرف يبدو أنه يحضر شيئاً ما.

بدأت أتحرى الأمر حتى جاءتني الإجابة من المرشدة الاجتماعية التي اتصلت بي بالهاتف، وطلبت مني زيارة زوجة عمر النائمة بالمستشفى، لأنها تريد التحدث معي.

ماذا حدث؟ هذه المرأة التي لا أعرف عنها أي شيء، وتصر على مقابلتي للتحدث معي. عندما فتحت باب غرفتها انفجرت بالبكاء، لست أدري لماذا؟ ربما ضربها عمر، لكي تهرب من عنفه رمت بنفسها من شرفة البيت، الشرفة نفسها التي هربت منها من عدة سنة مضت، لقد مزق جواز سفرها ورماه في الحمام، تذكرت تلك اللحظة سنوات المعاناة لما كنت أخفي بطاقة إقامتي في ملابسي الداخلية السفلى خوفاً من تمزيقها وحرقها.

طبعاً عمر لم يغير من سلوكه.

في سنة 1975 اقترح علي مدير العمل سكناً مكوناً من ثلاثة غرف، لقد كبر الأطفال ويجب التفريق بين الصبيان والبنات، ولكن هناك مشكلة، السكن غير مجهز بجهاز برلوفون مثل بيتي الحالي، والخوف لا يفارقني بالرغم من السعادة التي أشعر بها مع الأطفال.

في أحد الأيام، يوم الجمعة بالذات في المساء تفاجأت بالجرس يرن مرة ثم مرتين، اقتربت من الباب بينما جميلة ونادية ترجفان بجانبي، إنهما تعرفان الجحيم الذي كنا نعيش فيه وتهتزان عند سماع أي حركة، تملكنا الرعب.

قلت: من هنا.

وعرفت الإجابة فوراً.

- أنا عمر، قال ذلك بصوت رقيق

- اقتربي من الباب أريد قول شيئاً لك أصغي إلى عبر ثقب القفل لكي تسمعي ما سوف أقوله لك.

اقتربت قليلاً.

بمجرد اقترابي من الفتحة أدخل قضيباً ناعماً وحاداً لإيذائي، توقف القضيب قريباً من وجهي، لو اقتربت أكثر كما طلب لخرق جمجمتي.

- أتمنى لو أني خرقت أذنك قال ذلك، وهو يتلذذ ويضحك لقد شرب كثيراً إنه سكران، لم أرد عليه، بعد عدة دقائق رأيت سائلاً تحت الباب إنه يبول.

قررت رفع دعوى عليه لكنه عندما تم استدعاؤه في مركز الشرطة بدأ يبكي، ويحلف بأنه لم يفعل شيئاً، وأني افتعلت هذه القصة لإيذائه فتم إطلاق سراحه.

بعد أيام عند رجوعي إلى البيت من العمل، كان ذلك يوم الأربعاء والأولاد قضوا كل اليوم بالبيت، وجدت البيت مقلوباً وكل شيء فيه قد دُمِّر.

أسرعت إلى غرفة الاستقبال، فوجدت الأولاد أمام التلفاز يتفرجون بكل هدوء قلت لهم.

- ماذا حصل؟ ماذا فعلتم؟

- لا شيء لا شيء.

- كيف لا شيء وكل شيء محطم حتى إسطوانات الفيس برزلي لم تنجوا من هذا الدمار. قالت نادية: أنا أعرف يا أمي، لقد جاء أبي وقال إنه يريد أن يستريح قليلاً في غرفتك فأدخلناه.

منذ ذلك اليوم أصبحنا نعيش كالحيوانات في أقفاصها، يا له من رعباً خوفاً من قدوم عمر في أي لحظة.

الأطفال على وشك الانهيار، في يوم من الأيام رجعت قبل الوقت المعتاد، وجدت الأطفال يرتجفون من الخوف، لقد كنا نظن أنه عمر هو الذي جاء هذا ما قاله زكريا، ثم أضاف: إذا وجدنا فسوف يقتلنا.

أجهشت بالبكاء لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا.

في إحدى الليالي عند عودتي من العمل ليلاً، لاحظت سيارته واقفة في إحدى أركان الشارع بعيدة عن الأنظار، هو في البيت دون شك.

دخلت إلى أول كشك هواتف، وطلبت الشرطة لكي ترافقني إلى البيت، عند وصولنا إلى البيت تركت الشرطة تطرق الباب فتح لهم عمر بكل برودة.

نعم، ماذا تريدون؟ قال ذلك وهو واثق من نفسه كأنه يبدو غير ذلك الشخص المرعب الذي وصفته لهم، شرح لهم أني متوترة شيئاً ما وأن ذلك يحصل لي من حين إلى آخر، أخذ الشرطي يشك في والتفت إلي وسألني ما هذه السخرية، من حسن حظي كنت دوماً أحتفظ بقرار القاضي الذي يثبت طلاقي منذ 1971 لذا لا يجوز لعمر أن يوجد هنا.

فهم الشرطي لعبة عمر، فدخل هو وزملاؤه البيت، وجدوا الأطفال يرتجفون من الخوف في أحد زوايا غرفة الجلوس، وخرج عمر معهم مقيد اليدين.

تم الحكم عليه بغرامة قدرها أربعة آلاف فرنك لانتهاكه حرمة بيتنا، كما حكم عليه بعدم القدوم ثانية إلى الحي، وحكم عليه القاضي أيضاً

بدفع ألف فرنك شهرياً، لتأمين نفقات الأطفال كنت أعرف سلفاً أنه لن يدفع لي مليماً واحداً، لكن المهم أني تخلصت من عمر موسوي نهائياً. لقد كنت أتمنى ذلك.

(10)

أيام سعيدة

كانت الأيام تمر في مدينة مولوز على أحسن ما يرام، وعمر وعنفه أصبحا في طي النسيان، منذ أن بدأت العمل في البريد أصبحت أوفر قرشاً بعد قرش، واليوم - ولله الحمد - يمكنني تقديم أجمل هدية كنت أحلم بها لأولادي، بيت نمتلكه، كل هذا نتيجة كفاح مستميت، وعلامة على أني ثبّتُّ أقدامي في هذا البلد، طلبت من البنك قرضاً أسدده أثناء عشرين سنة، وهذا لا يخيفني من اليوم فصاعداً المستقبل لنا. هذا البيت الصغير سوف يكون ملجأ لأولادي حيث يكبرون ويترعرعون ويقومون ببناء حياتهم بوصفهم أفراداً في هذا البلد الذي يمنح فرصة لأي شخص لاختيار مستقبله.

من الآن فصاعداً سوف ننعم بالسعادة العائلية، وسوف نتقاسم الألعاب والفسح في الأرياف، والذهاب إلى السينما عندما يتوافر المال أيضاً.

في البيت أعددنا برنامجاً خاصاً لمتابعة مسلسل بالتلفاز قصة أخوين أحدهما غني والآخر فقير، حيث كان الفقير مضطهداً من طرف رجل عنيف يستغله؛ طبعاً الفقير بطل القصة. والأطفال متحمسون لشخصية هذا البطل الأسود المكيافيلي، في يوم من الأيام بينما كنت أغسل الأطباق سمعت الأطفال ينادونني، تعالي بسرعة يا ماما لقد جاء عمر من جديد لمضايقتنا؛ لقد أطلقوا اسم عمر على الرجل العنيف في المسلسل، كان الكل يضحك، ولكن بالنسبة لي ليست مجرد مزحة أتفهّم أنهم هضموا كل

المعاملات العنيفة التي واجهتهم في صغرهم، ولا شيء يمنعهم من تجاوز ذلك؛ لأن عمر خرج من حياتنا وعقولنا.

في يوم من الأيام بينما أنا أمشي في الشارع بمولوز، واجهت شخصية ليست غريبة عني إنها صديقة من صديقات الطفولة اسمها فاطمة. تسكن بمنجرة حيث يعمل كثير من سكان أزرو مسقط رأسي، اعتقدت أنني نسيت هذه المنطقة. لكني سعيدة للحصول على أخبار عن بلدي، ومنذ ذلك الحين لا تفارقني أبداً لقد انبهرت أمام نجاحي، والطريقة التي سلكتها للإفلات من الحياة التي سطرها أهلي. هي عكسي لم تتزوج بالإكراه، لكنه زواج دون حب لذا فلها عدة مغامرات مع الرجال منذ أن قدمت إلى الألزاس، وشعرت كأني سقطت من السماء عندما قالت لي ذلك.

- لماذا تفعلين ذلك؟ إذا كنت لا تحبينه، فالأفضل الطلاق بدلاً من الخيانة، نحن في فرنسة ويمكن الطلاق بسهولة.

- قالت: لا أستطيع ذلك، ماذا تقول العائلة، إنني لا أتحمل وضع المطلقة. لا أحد يحترمك قالت ذلك دون أي مراعاة لشعوري كوني مطلقة، لكني لا ألومها، لأن التقاليد تفرض عليها أن تعيش في النفاق والغش والكذب، بدلاً أن تعيش حياتها الخاصة وتنعم بالحرية.

في تلك الحقبة تعرفت على محمد الذي يعمل قريباً من البريد، لاحظت أنه بدأ يتقرب مني ويغازلني، أما أنا فكنت سعيدة بمجالسة شخص طيب ومؤدب أثناء الاستراحة في العمل، أما المغازلة فهي في طيء النسيان. مهما كان الأمر، فليس لدي أي رغبة في ذلك لكنه هو يبدو متمسكاً بالصبر والمثابرة.

في يوم من الأيام كنت جالسة في المجلس، فسمعت صوتاً يناديني نظرت من الشرفة ورأيت محمد؛ قال لي مبتسماً: اشتقت لرؤيتك.

بدأنا نتقابل بانتظام مدة ثلاثة أشهر في المقهى أو في المطعم، كم هو جميل أن تشعر المرأة أن رجلاً يغازلها.

إنه مغربي، ويعمل في ورش البناء مثل عمر، هذا هو الجانب الوحيد الذي يشارك فيه عمر إنه لطيف متفتح، ويميل إلى كثرة المدح. في إحدى المرات بعدما تعرفت عليه تظاهر بعدم تصديقي لما أخبرته أني مطلقة، وأم لأربعة أطفال. للعلم إني لم أتجاوز الثلاثين من العمر، وإلى اليوم بالرغم من الحمل المتتابع لم أفقد رشاقتي.

كنت متأكدة أني لا أقع في فخ أي رجل في المستقبل، لكني هذه المرة استسلمت للأمر الواقع، إني أحبه، ومعه اكتشفت معنى الحب، وعرفت معنى التكامل، وتقاسم الحب، بجانبه أشعر كأني أميرة فهو يطبخ ويقدم لي باقات من الأزهار، ويحضر لي الحمام حتى أصبحت أشعر كأني ولدت من جديد. إنه يصارحني باستمرار أنه يحبني، وعندما يضع يده على جسمي ينتفض كل ما بداخلي. لم أعامل من قبل مثل هذه المعاملة.

الأطفال قبلوه بسهولة أيضاً، لقد اكتشفوا فيه الرجل الذي يلعب معهم، ويتناقش معهم، ويرافقهم للفسحة مرة بألمانية وأخرى بسويسرة، معه انتعشت كل العائلة.

إني فخورة بتقديمه لزملائي وزميلاتي في العمل وأصدقائي، وأخيراً يمكن لي أن أثبت للعالم، ولعائلتي بالذات أني على صواب عندما كنت أكد وأكافح مؤمنة أن السعادة موجودة وممكنة، لذا لا يجب الاستسلام.

أظن أن الزمن الذي كنت أبحث فيه عن بناء حياتي قد ولى، لقد تخلصت من أشباح الماضي وبدأت بناء مستقبل جديد.

في سنة 1976 حصل ما لم أكن أتوقعه؛ لأني نسيته أصلاً، جاء حدث ليتوج حياتي، لقد جاءتني رسالة تفيدني بمنحي الجنسية الفرنسية رسمياً، كانت رسالة عادية لكنها تحمل حدثاً عظيماً، يا لها من سعادة، لقد أصبحت فرنسية، هذا شيء عظيم بالنسبة لي، من حين إلى آخر كان بعض الفرنسيين يقولون لي: لقد جاءني شرطي للبيت يسألني عنك، وكيف تتصرفين مع الناس، وكيف تعاملين الأطفال، كنت أعلم أنه قبل منح الجنسية تجري تحريات بخصوص الشخص المعني، وهذا شيء طبيعي، بل أقل شيء يمكن عمله لمنح هذا الشرف الكبير إلى من يتقدم بطلب للحصول على الجنسية، لهذا فأنا اليوم أعتز بقبولي مواطنةً تنتمي إلى هذا البلد الذي أحبه، وأحببته كثيراً. منحت لي الجنسية لأني أستحقها، لكن أسفي الوحيد كان لعدم وجود حفل رسمي بهذه المناسبة العظيمة، لكن مهما يكن الأمر، فإن الحصول على الجنسية الفرنسية في حد ذاته حدث عظيم، هذا ما جعلني أقول إن رسالة صغيرة مثل هذه لا تكفي للتعبير عن هذا الحدث الكبير. مهما كان الحدث فلم أتنكر لأصلي المغربي، لأني أحتفظ بذلك في داخلي، ولا يمكن أن أنسى رائحة قريتي، ولا أجواءها ولا حسن ضيافة المغاربة ولاتآزر وتكاتف الأولين واحترامهم المتبادل، لكن قيمي اليوم هي قيم الجمهورية الفرنسية التي يجب أن أسلّمها لأولادي، وأول هذه القيم الحرية بالطبع.

مستقبل جديد بدأ ينمو أمامي، كل ما كنت أحلم به بدأ يتحقق، محمد أيضاً طلب الزواج مني، مع أني أخذت عهداً على نفسي ألّا أتزوج

أبداً. لكن معه تبدو الأشياء واضحة. جمعنا الأصدقاء حول مشوي وأعلنا زواجنا بحضور شاهدين. كنا لا نرغب في إقامة حفل رسمي لهذه المناسبة ولكن ذلك كان كافياً لإثبات زواجنا على سنة الله ورسوله وتتويج حبنا بهذه المناسبة البسيطة.

للأسف اكتشفت بسرعة أن محمداً ليس ذلك الرجل الذي يكتفي بامرأة واحدة، لقد سبق وحذرني أصدقاء منه، لكن إلى الآن لم أحاول رؤية ذلك مهما كان. لقد اكتشفت ذلك عبر صديقتي فاطمة، فقد كانت تزورنا باستمرار، ولاحظت أنها تأتي إلى البيت أثناء غيابي أيضاً، أصبحت لا أتحمل زيارتها فوضعت رسالة في صندوق بريدها أفيدها بعدم رغبتي في استقبالها ثانية، بعد يومين اتصل بي محمد في المساء وقال لي إنه سيسهر عند أصدقائه، عبر صوته عرفت أنه يكذب، لأن أي امرأة تشعر بذلك. ركبت سيارتي وذهبت عند فاطمة، وأوقفت سيارتي في الموقف المجاور لبيتها ودخلت البيت دون استئذان، كنت مثل المجنونة، لقد كانت جالسة على الأريكة وكان محمد يعانقها بيد ويلمس صدرها بيده الأخرى، أمام هذا المشهد فقدت أعصابي انهلت ضرباً على محمد وحطمت كل شيء وجدته أمامي، هل هذا هو الثمن الذي أدفعه لمنح ثقتي من جديد للرجال؟ رجعت إلى البيت كالمجنونة، ثم حاولت تهدئة أعصابي لأن أمي كانت ضيفة عندي ولا أريد أن أزعجها بحادث مثل هذا، على كل حال أنا أعرف رأيها في مثل هذه الحالة، رأيها واضح - منذ زمن لما كنت غير معنية بمثل هذه الأحداث - فلا غرابة في أن يتزوج رجل عدة حريم، وتحمل الخيانة وعدم الاحترام ليس كافياً لأي امرأة لهجر زوجها، المهم بالنسبة للمرأة تحمل الخيانة وعدم البقاء دون زوج، هذه هي التقاليد،

فهي لا تريد سماع هذه المبادئ التي كافحت من أجلها طوال حياتي، لكني أنا لست على استعداد للمنافقة أمام أمي، وأخبرتها بكل شيء ولكن كل ما أزعجها وأثار سخطها، أن من قامت بهذه الفعلة هي صديقة مسلمة، وأخذت تدعو لها بالهداية، لم تقل شيئاً بخصوص تصرف محمد، وتأكدت في تلك اللحظة أننا نعيش في عالمين مختلفين ولا فائدة من متابعة المناقشة، وأخيراً رجع محمد في منتصف الليل حلف لي بأن ذلك حادث عابر لن يتكرر بعد اليوم، أعرف أنه يكذب، كم كنت غبية، لقد كنت أريد أن أرمي أغراضه في الشارع، لكني امتنعت عن ذلك؛ لأن في ذلك إهانة لأمي وهي ما زالت ضيفة في بيتي، كل هذا من أجل هذه العائلة المقدسة والتقاليد البالية.

ثلاثة أشهر ومحمد ينام منفرداً على الأريكة في قاعة الجلوس، وأخيراً استسلمت، لماذا يجب أن أحبه إلى هذه الدرجة بالرغم من استعداده الطيب فهو لا يستطيع الوفاء بعهده مهما حلف، ووضع يده اليمنى على القرآن، فلن يوفي بعهده، وسيكرر ما فعل وسوف يفعل ذلك دوماً، لقد مللت وأخبرت أمي أني سوف أطرده. لا تفعلي ذلك يا عائشة لا فائدة من ذلك، إنه من الطبيعي أن يخونك فهو رجل لكنه يحبك، ولو تتركيه سوف تصبحين وحيدة وتتغير حياتك إلى الأبد. يجب أن أتركه إني أعرف ذلك، لكن ليست لي الشجاعة الكافية للقيام بذلك ولكن نادية جاءت لتزيل التردد. في يوم من الأيام - بينما نحن نتناول الطعام - صارحته بعنف، لعلمك يا محمد لا تضع يدك على صدري عندما توقظني من النوم، قالت له ذلك وهي تنظر إليه بعنف، وتابعت الزم حدودك بالبقاء عند الباب الآن. لقد تكلم ملاك، هذه المرة لا يمكن السكوت يجب أن أجد

القوة لتركه قبل أن يدمر عائلتي، أسهل طريقة لذلك هو الرحيل. طلبت من أطفالي إن كانوا على استعداد للعيش في الجنوب الفرنسي، لكن زكريا رفض لأنه لا يريد فراق أصدقائه ولا فريق كرة القدم الذي يلعب فيه، لكن أخاه وأختيه موافقون، ابتداء من صباح الغد طلبت من المدير نقلي، وسجلت جميلة في إحدى المدارس الداخلية لحمايتها من محمد. بعد سنة ونصف رحلنا إلى ناربون. كان ذلك في 15 أغسطس 1980 عندما وصلنا هطلت أمطار غزيرة مصحوبة برعد وصاعقة، كانت علامة سيئة بالطبع. قلت ذلك عندما رأيت الصاعقة تهوي على البلد. سكنا في شقة تابعة للبريد في حي شعبي من أحياء ناربون، كان الأطفال سعداء لأنهم يقضون كل وقتهم في البحر مع أصدقائهم الجدد. طلبت قرضاً، واشتريت لكل واحد دراجة هوائية، كنت سعيدة لتقديم هذه الهدية التي حرمت منها لأولادي، وبدأنا ننعم جميعاً بالحياة وهي تبتسم لنا، لقد ولى الزمن الذي كنا نهرب فيه من زوج خائن وأب عنيف؛ زمن العنف المخيف، أنا سعيدة وأشعر أن لا شيء يعكر صفونا بعد اليوم، لكن هنا بالجنوب ولأول مرة شعرت بالتفرقة والعنصرية، لم أشاهد ذلك في بايون ولا في الألزاس، ولم أسمع أي ملاحظة، ولا أي تعليق لكن هنا عند وصولي أول مرة للعمل بالبريد شعرت بثقل حولي، بشيء من المضايقة، ربما كانوا يظنون أن أماً لأربعة أطفال ما هي إلا ماما تزن مئة كيلو غرام لا تغادر حجابها، بما أني في مقتبل العمر وأتمتع بالحيوية أصبحت أثير تعجب الآخرين، الكل يحاول رؤيتي في العمل، أرأيت العربية؟ قال ذلك أحد الزملاء لصديق له: قالها وكأني غير موجودة، وقال آخر: أتت هنا للقيام بعمل كان يجب أن يقوم به فرنسي. قال ذلك وكأنه يمزح، كنت أتقبل كل ذلك بهدوء.

بعد أسابيع تغير الوضع، وانتهوا بقبولي كما أنا زميلة عمل فقط، لكني شعرت أن هنا بالجنوب كل شيء يختلف، هنا شيء من الكبت والمضايقة، فالكل ينظر إليّ عند المرور بالقرب مني في الشارع، قالت لي إحدى صديقاتي الفرنسيات، وكأنها تجاملني: لو كان كل العرب مثلك لما كانت هناك مشكلات، نظرت لها مبتسمة، وغيرت الأسطوانة فهي دون شك لا تحسن التصرف، كيف يمكن إفهامها أن في كلامها إهانة لي؟ إهانة لأن التجريح لا يقتصر على جنس معين، ولا ثقافة معينة. ماذا تظن هل العرب عرق خاص؟ من جهة أخرى أشعر أنها تجرحني؛ لأني لا أريد أن تحتقرني بصفتي عربية، وخصوصاً أني كنت أعدّها صديقة لي. لقد أخطأت بقدومي إلى هذا المدينة.

قام الأطفال بتهدئتي، ومحو هذه الأفكار من ذاكرتي، هم يتمتعون بالحياة، وينعمون بشمس ناربون. سعادتهم جرفت أفكاري السوداء، وشجعتني على الاستمرار بالتمسك بالحياة هنا، والتقدم إلى الأمام. كانت شقتنا ضيقة شيئاً ما، وبدأ الأطفال يحلمون ببيت كبير حيث ينفرد كل واحد بغرفته، وقررت بيع بيتنا في مولوز، وطلب قرضٍ يسدد على خمس وعشرين سنة لبناء بيت كبير هنا. عند خروجي من البنك كنت أتساءل إن كنت أحلم، أنا البنت المغربية التي حرمت من الذهاب إلى المدرسة، أقوم ببناء بيت كبير، وأخذت أنا والأطفال نخطط مدة أسابيع لنضع اللمسات الأخيرة لمشروعنا، كل واحد يبدي رأيه، ويطبق أفكاره. كل واحد يريد أكبر غرفة، وكل قرار نتخذه لا يتم إلا بعد تفكير طويل، لكن المهم أننا كلنا نشعر بالسعادة، لأننا سوف نبني بيتنا الخاص بنا. بدأنا في التنفيذ

سنة 1982 في حي هادئ من أحياء ضواحي ناربون، أنا العربية الأولى التي تحط الرحال في هذا الحي، وكان استقبال أهل الحي لنا فيه كثير من الدفء.

قدم أخي محمد من المغرب ليساعدني في الإشراف على بناء هذا البيت، أربعة عمال يعملون بتواصل قدم محمد «زوجي الثاني» من مولوز لمساعدتنا أيضاً، ووقعت من جديد في حبه. مقابل عمله، طلب مني أن أفتح له مطعم أكلات مغربية أساعده فيه خارج دوامي، كان يقول لي امنحيني ثقتك من جديد إني تغيرت، لكن ذلك غير صحيح، فسرعان ما تعرف على زبائن المطعم حتى أصبحت له مغامرات مع بعض الحسناوات، فهو من النوع الذي يمسك المصحف بيده اليمنى ويرتكب المعاصي بيده الأخرى. في يوم من الأيام بينما كان يعمل في ورشة بناء بيتي كنت أراقبه دون معرفته بذلك، راقبته مدة طويلة فهو قوي البنية وطويل يتمتع بصحة جيدة تجعله جذاباً جداً. صحيح أني لم أعش تجربة مثل التي عشتها معه، ولا يمكن أن أعيشها مرة أخرى، لكن خداعه جعلني أتغاضى عن المغامرة مرة أخرى، وجف قلبي تجاهه. لا يمكن تغييره وأعرف أني سأضع هذا الإحساس نحوه جانباً، كل ما يهمني هو منزلي هذا البيت الذي سيصبح ملكنا؛ بيت كبير يمكنه استيعاب أحلامي، وأحلام أطفالي الأربعة. بالنسبة لي فلا أعدّه بيتاً فقط، لكنه خلاصة كفاحي من أجل بناء هذا الجدار المنيع لحمايتنا من ضربات الحياة القاسية، فهو العش الذي يشعر فيه أطفالي بالأمن والأمان.